

سيرة ضريبة الصوت

قصة قصيرة

لقد مررت بامتحان الحياة، لا أدري
هل اجتزته بنجاح أم رسبت فيه،
لكنني اجتزته وانتهى الأمر.

أميرة بدر



فِي صُحْبَةِ الْمَوْتِ

فِي صُحْبَةِ الْمَوْتِ

أَمِيرَةُ بَدْر

أَمِيرَةُ بَدْر

«فِي صُحْبَةِ الْمَوْتِ»

تأليف:- الكاتبة أميرة بدر.

تصميم غلاف:- أميرة بدر.

تصميم داخلي وتنسيق وتعبئة:- أميرة بدر.

«فِي صُحْبَةِ الْمَوْتِ»

أُطْلَّ جَسَدِي أَعْجَفًا هَزِيلًا ثَقِيلًا مُنْهَكًا، فَلَمْ أَقْوَى
إِلَّا عَلَى تَرْكِهِ يَمْتَثِلُ فِي خَنُوعٍ تَامٍ، مَزَّقَنِي
النُّضُوبَ وَالْإِرْهَاقَ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً وَأَنَا أَكَابِدُ مَشَقَّةَ
الْحَيَاةِ وَضَيْقُهَا حَتَّى تَبَرَّمْتُ مِنْهَا وَسَمَّمْتُهَا، وَهَا
هُوَ يَعِيدُ كَرَّتَهُ وَأَنَا عَلَى حَافَةِ الْمَوْتِ أَنْزَلَ
الْمَنِيَّةَ، لَمْ يَتْرَكْنِي الْأَلَمَ طَوَالَ حَيَاتِي إِنْ كُنْتُ قَدْ
حَيَيْتُ يَوْمًا، وَهَا هُوَ يَعْتَصِرُنِي كَحَبَةِ زَيْتُونٍ
عَلَّهْ يَسْتَخْلَصُ آخِرَ قَطْرَاتِ أَلْمِي قَبْلَ أَنْ أَفَارِقَ
هَذِهِ الدُّنْيَا.

لَطَالَمَا كُنْتُ رَاضِيًا وَلَا زَالَتْ بِرُوحِي بَعْضُ
بَقَايَا الرِّضَا الْمَتَعَلِّقَةِ بِذَاتِي، لَمْ أَخْضَعُ
لِلْإِسْتِسْلَامِ، لَمْ أَصِلْ لِمَرْحَلَةِ فَقْدِ الْهُوِيَّةِ، كُنْتُ
مُتَّصِلًا مَعَ الدَّاتِ، تَبَدُّو لِي النِّهَايَةَ مَفْجِعَةً
وَسَرِيعَةً، مَا أَسْرَنِي حَقًّا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ أَبَدًا
مَفَاجِئَةً، انْتظرتَه كَثِيرًا، انْتظرتَه وَلَمْ أَكَلِّ أَوْ أَمَلِّ
الْإِنْتِظَارِ، نَعَمْ لَقَدْ انْتظرتُ الْمَوْتَ!
وَكَنْتُ دَائِمًا التَّرْقِبَ لِمَجِيئِهِ،

واستجاب حبيبي!

استجاب.. وها أنا أموت برضاً لم أحسبني يوماً
أشعر به، ظننت أن مدارك الإحساس عندي قد
تعطلت، كما حدث وتعطلت جميع حواسي،
بدأت أتهاوى، أغشى، أغفى، تقترب النهاية
رويداً، أراها رؤى العين رغم الغشاوة التي
أصابت عيني، غمامةٌ حجت رؤيتي أو هكذا
خيّل إلي.

«هل الموت رحيمٌ هكذا؟»

«لم يخشاه الناس إذن؟!»

لقد شملني السؤال في عجبٍ يملأ كامل جسدي
بقشعريرةٍ وطمأنينةٍ عجبتُ لها.

إنه يد الرحمة، الخلاص، الراحة الأبدية، فإما
هو النعيم المُقيم أو الشقاء المعلوم والأبدي!
كم أبدو ضعيفاً وقويًا، خليطٌ عجيب بين التوهة
والإحساس، تخالج نفسي سعادة مغلقة بالحزن،
حبورٌ وامتعاظ يكسوه تناقض بيّن، إنها نفسي
المعذبة التي تتعلق كطبع غيرها من النفوس

البشرية، ألم تكتفِ، ألم تشبع، ألم تهناً لما بعد،
ألم تتطلع لما هو قادم!

إنه الخلاص، والتحرر، والديمومة، هيا انطلق
في استسالاترتاحي قليلا!

لا أعلم إن كنت سأشتاقُ هذا العالم؟

وماذا يهمني منه بعد الآن..

لقد أعلنتُ اكتفائي منهم وضقت بهم ذرعًا.

ألن أشتاق؟

ولم أشتاق وأنا من شبعت صحبتهم، اكتفيت بما
يكفي، الآن أنتظر.....

وهل سأنتظر طويلا؟!

لم أعد أبالي أو أحفل بالانتظار، ليكن بيني وبينه
أمدًا بعيدًا، أو أتلقفه سريعًا، طال موعده أم
قصر، المهم أنني قد وصلت، وصلت للبداية،
بداية الرحلة التي لها خلقنا.

مررت بامتحان الحياة، لا أدري هل اجتزته
بنجاح أم رسبت فيه، لكني اجتزته وانتهى
الأمر.

كمن يخترق جوفه مرضاً فيصبر عليه أو
يمقت، يمرّضه أو يتركه متغافلاً.

وها قد أتى الخلاص .. إنه قاب قوسين أو أدنى،
ربما بعد دقيقة، ساعة، سويعات، متى نفذ أمر
الله حتماً سأعلم.

كم أنا مشتاق وبي شغف الفضول لأعلم هل
نجحت؟!!

هل كانت صفحتي بيضاء كلون نقاء الشمس
الساطع يكاد يُشقُّ له الأعين إن تطلعت إليها في
تعمدٍ، أم هي مشوشة خالطها الخير بالشر
فضاعت معالمها ومعها ضاع كل شيء، ما
هذا..

لم عقلي لازال يحدثني!
ألم تنهكه تلك السنوات المنصرمة التي أزعجني
فيها بأسئلته هذه،

ألم يكتفِ بعد وهو على مشارف التعطل،
ألا يأبى إلا وأن يرهقني،

ألن يفلتني بسيل أسئلته هذا؟!!

ها قد رضيت وخضعت ولنت، اكتفيت الآن،
تبدو النهاية تقترب،..

وقفتُ على مشارف السماء حيث تحاوطني
السحب من كل صوبٍ وحدث، كأنها الأم التي
تضمني بحنان جناحيها وأنا أقف في تضرعٍ،
تملؤني بهجة أكاد أغشى لها، السماء نقية
والأرض ندية والجو مشرق في نقاء وصفاء لم
أعهد لهما مثيلاً، أشتم عطر السلام والطمأنينة..
إنها اليوم تبدلت، أضحت الأرض غير الأرض،
والسما غير السماء، إنها الآخرة.. إنها الجنة!
جاءني الصوت من بعيد، يتساءل في حيرة:

- مَنْ سيبعد النار عنا؟

إنها النار، نعم هي، تمثلت أمامي في لمح
البصر، ويكأنها كوكبٌ دريٌّ لها جلال عظيم،
رأيتها ضاربةً السنة لهبها هناك في الأفق
الفسيح، لا يعلوها شيء، ولا يحد منها أحد، إنها
عظيمة، مخيفة، وقوية، لكني لم أخشاها، كنت
أقف متسائلاً عمّا سيحبها عني؟

أتاني الطيف ثانيةً من حيث أتاني من قبل، يقول
لي أن اطمئن!

لقد تبدل موضعها كأن أزاقتها اليد الإلهية
فتوارت خلف السماء حيث تمثلت هي الأخرى
كموج البحر ينتشر في ثبات حاجبًا خلفه السحب
وبسط ماءه حتى اعتمد كامل ما بيني وبين النار
فحجبها كليًا، لم أعد مزعورًا منها، بل كنت
مذهولاً

جلستُ على أرضٍ غير الأرض كالجالس على
غيمةٍ بيضاء تاهت وضلت الطريق، جلست في
الجنة!!

- أوّاب.

جلستُ مُمعناً ببصري صوب السماء، تموج فيها
الكائنات وتسبح كأنها في عرض البحر، تعلق
قلبي بإحداها كانت تشبه الإخطبوط باسطاً
أذرعهِ، فرآني أنظر إليه، فاقترب بدوره ودنى
من....

- أوّاب.

ما هذا الصوت؟

إنه يتنامى لسمعي فيؤرق راحتي، تبًا إنه يشبه صوت «نتاليا» المزعج،... ماذا؟

وما الذي أتى بها إلى الجنة، هل ماتت هي الأخرى؟

ولكنها ليست..، هل سيدخلون الجنة معنا؟!!

يا إلهي، يبدو أنني ميتٌ أصابه الخرف!

- أو اب.

لم يكن الصوت بمفرده ما أشعر به، بضغ لكراتٍ أشعر بها تضايقٌ جسدي.

لحظاتٌ يأتيني الصوت كالخارج من بطن الماء، ولحظات أتألم من تلك الضربات على جسدي،

حينها بدأت أستعيد بعضًا من حواسي كمن شقت عليه الأرض حديثًا أنفض عن نفسي غبار الألم

والثقل، التفت يمينًا أتبعتها بيسرةٍ في تشتتٍ ظهر جليًا على معالم وجهي العابس، لمحت طيف

إنسانٍ وبقايا احتفالٍ مبعثر يبدو كأنه احتفال بعيد ميلًا....

أه تذكرت، ولكن...

هناك خطأ ما يحدث!!

- كعادتك دومًا تترك باب شفتك مفتوحًا، ألا تخشى أن يسرقك أحدهم؟

قالتها «نتاليا» وأنا أتطلع إليها بنظرة دهوش ولم أستطع أن أجيبها ولو بكلمة واحدة.

أنا مضروبٌ بصاعق كهربائي، شيء ما يحدث على غير حالته، أين الجنة وأين الحساب؟!!

ولم «نتاليا» تبدو بهيئتها الدنيوية؟

أعلم يقينًا أننا سنبعث عند الثلاثين، ولا زالت هي بترهلاتها تكبر عمرها الحقيقي بعشر سنواتٍ على الأقل، تبدو الآن في الستين!

خطوت بعد محاولة جاهدة للنهوض سبقتها محاولة لعدم الرد على أسئلتها، لا أعلم لم كنت فظًا معها هكذا رغم أنها الوحيدة التي كانت تعتني بي في دنيائي البائسة.

اقتربت من النافذة ومططت رأسي في تشوشٍ كان الحي هادئًا ونسمات الهواء تضرب أصائل

الصباح فتسربت قوة ناعمة أضرمت الطمانينة
لقلبي.

كانت بعض السحب لا زالت تفرض أذرعها
على بساط الأرض، هناك وقفت خالتي «هانم»
تفتح دكانها الصغير، وتخرج منه علب الكرتون
المتلئة لنصفها تقريبًا بأنواع القلبط والشيبسي
المتنوعة، فدكانها صغير لا تتحمل بتعبئته
بسندات الكراتين الكبيرة، وفي الزاوية المقابلة
لها عم «سامح» القهوجي سيفتح قهوته ويبدأ
في الكنس وبعد قليل سيفتح خرطوم المياه،
ليرش أمام دكانته فحسب عقيدته الصباحية
«رش الماء خير» ثم هناك عم ناصر يفتح... ثم
هنا هذا يغدو.. وهذا يروح.

يبدو أنني لم أمت أصلاً، ولكنني عشتُ لحظاتٍ
في صُحْبَةِ الْمَوْتِ هي كل ما أملك!